قلعة ألموت أو عش العقاب

السيد حسين الأمين والسيد محمد حسين الجلالي

قلعة ألموت هي أكبر قلاع الإسماعيلية النزارية وتقع هذه القلاع إلى الشمال الغربي من مدينة قزوين، والذي يقصد قزوين من همذان يشاهد -إذا قارب قزوين- سلسة جبال الديلم التي وجدت فيها قلاع الإسماعيلية منها ألموت و(ميمون در) و(كردكوه) و(لم سر) وعدد من هذه القلاع خمسون قلعة على ما يقول بعض المؤرخين. وتقع ألموت على ستة فراسخ من قزوين قال القزويني: (هي قلعة على قلة جبل وحولها وهاد لا يمكن نصب المنجنيق عليها، ولا النشاب يبلغها).

يقول القزويني ولما فتح هولاكو هذه القلعة (ألموت) سنة ٦٥٤ خضعت بقية القلاع فجعلها قاعاً صفصفا.

❖ نصير الدين الطوسي في ألموت

كان نصير الدين الطوسي خلال الغزو المغولي الأول بقيادة جنكيز خان ينزل مدينة نيسابور، ولما هوجمت المدينة وذهب أهلها قتلاً وتشريداً كان نصير الدين الطوسي فيمن فرَّ منها، وظل في فراره حتى استجاب لدعوة المحتشم ناصر الدين متولي قهستان وقلاع الإسماعيليين في خراسان من قبل علاء الدين محمد زعيم الإسماعيليين آنذاك ثم انتقل إلى مقر علاء الدين في قلعة ميمون در، وبعد علاء الدين تولى ابنه ركن الدين خورشاه أقام الطوسي معه في قلعة ألموت.

ولما وصل زحف هولاكو في الغزو المغولي الثاني، إلى قلاع الإسماعيليين توالت الرسل بين هولاكو وركن الدين خورشاه إلى أن انتهى الأمر بتسليم ركن الدين مع من معه وفيهم نصير الدين الطوسي فقتلوا جميعاً ما عدا الطوسي وطبيبين اثنين احتفظ بهم هولاكو.

❖ الحشاشون

لقد تفنن خصوم الإسماعيليون النزاريين في كيل التهم عليهم، فمن ذلك أنهم استغلوا الصفة التي أطلقها الصليبيون على الإسماعيليين النزاريين لكثرة ما فتكوا بهم فلقبوهم بلقب ASSASINS أي المغتالون واستغل خصوم الإسماعيليين هذا اللقب فحولوه إلى الكلمة العربية (حشاشون) نسبة إلى (الحشيشة) العشبة المخدرة.

وقالوا إن الحسن بن الصباح كان يزرعها في الموت وحاكوا حول ذلك أساطير عجيبة وقد كتب الأستاذ مصطفى غالب معللاً أصل هذه الكلمة: من التهم التي ألصقت بالإسماعيلية النزارية وتناقلها بعض الباحثين أسطورة (الحشيشة) وتعويد الأتباع تعاطي هذه المادة وإدمانها فلا يستطيعون الحياة بدونها. ويريدون الأعمال الخطيرة التي كان يقوم بها الفدائية من قتل واغتيال إلى فعل هذه المادة وتسلطها على عقولهم فزعموا أنهم كانوا ينفذون كل ما يطلب منهم بدقة لا متناهية لقاء حصولهم على الحشيشة، فإذا نفذوا الأوامر كافأهم الشيخ وأعطاهم الحشيشة وأدخلهم جنته.

ويصور لنا الرحالة البندقي ماركوبولو في القرن الثالث عشر الميلادي قصة خرافية ابتدعها وسماها (جنة شيخ الجبل).

يذهب فيها أن (شيخ الجبل) أنشأ في واد يقع بين جبلين حديقة غناء فسيحة غرس فيها جميع أنواع الزهور وأشجار الفاكهة، وجعل فيها مقصورات ذات قباب بديعة الشكل وزخرفها بنقوش ذهبية، وأوجد في الحديقة أنهاراً من خمر وأخرى من عسل وثالثة من لبن وأقام الحور العين والولدان المخلدين، والجميع يلهون بالموسيقى والغناء والرقص، وذلك كله لفتنة أتباعه بأن هذه هي الجنة التي وعد الله بها المتقين.. وإن في استطاعة شيخ الجبل أن يدخل جنته هذه من يشاء ويحرم منها من يشاء، لذلك تفانوا في طاعته والامتثال لأوامره، ولم يكن يسمح لأحد بدخولها إلاّ طبقة الفدائيين فقط.

هذه الأسطورة التي ابتدعها خيال الرحالة كانت ولا تزال حتى عصرنا مثاراً لأساطير كثيرة عن الفدائية الاسماعيلية النزارية وشيخهم الحسن بن الصباح، كما ألهمت عددا كبيرا من كتاب القصص والروايات للتحليق في أجواء الجنة الخيالية العابقة بالترهات والسفاسف ولعل السبب الذي من أجله صدق العامة القصة وحاولوا إثبات صحتها لمن يشك فيها هو نظام الفدائيين الذي أوجده الحسن بن الصباح للمرة الأولى في التاريخ.

ولقد سبق أن ناقشنا هذه الناحية مراراً في كتاباتنا، وبينا مواضع الافتراء والدس والتحامل، وذكرنا أن الأساس كلمة (الحشاشين) التي ألصقت بالإسماعيلية النزارية محرفة عمداً وأن أصلها يرجع إلى واحد من هذه الوجوه الآتية:

١ - أساسان: أي القتلة والسفاكون وهذه لفظة كان يطلقها الصليبيون على الفدائية الذين كانوا يفتكون بملوكهم وقادة جيوشهم فخافوهم ولقبوهم (الأساسان).

٢ - حساسان: نسبة إلى شيخ الجبل الحسن بن الصباح الذي أوجد منظمات الفدائية.

٣ - حساسون: مشتقة من الحس والشعور أي ذوو حس وشعور

٤ - عساسون: مشتقة من العسس الذين يقضون الليالي في قلاعهم وحصونهم لحراستها والدفاع عنها.

٥ - أساسين: لقولهم بالأساس وهي صفة تطلق تأويلاً على الإمام أساس الدور والدعوة.

وقد عمد خصوم الإسماعيلية عن قصد إلى تحريف الكلمات بقصد النيل من سمعة الفدائية، أما الجنة الخيالية التي وصفها ماركوبولو فالتاريخ يذكر أن الحسن بن الصباح بعدما اطمأن إلى استقراره في قلعة (ألموت) ووزع الدعاة والنواب والقادة في مختلف أنحاء البلاد الإسلامية لم يُشاهد خارج منزله في (ألموت) سوى مرتين فقط.

والظاهر أن الحسن رأى أن تزرع قلعة (ألموت) بالأشجار فأصبح منظر الجبل بعدما كسته الخضرة وأينعت فيه الزهور سبباً في هذه القصة الخيالية ولقد زادت في هذا المنظر الخلاب التضحيات الجسام والجرأة النادرة التي كان يقوم بها الفدائية الذين أعدهم الحسن وعلّمهم كيف يستعملون سلاحهم ويخفون أنفسهم، بحيث لا يبوح أحد منهم بسره، أو بسر الجماعة التي ينتسب إليها.. فإذا قبض عليه أحد الخصوم يجب عليه أن يقتل نفسه قبل أن يجبر على الكلام ومن الواضح أن القيادة كانت صارمة جداً في تنشئة هؤلاء الفدائية قاسية عليهم أشد القسوة.

ولو حاولنا أن نناقش عقلياً ومنطقياً وطبياً أحوال مدمن الحشيشة لوجدناه بما لا يقبل الشك والجدل يتصف بالجبن ولا يمكنه أن يفعل مثل الأفعال الخارقة التي كان يفعلها الفدائيون من قتل الأعداء أو قتل أنفسهم إذا فشلوا في مهماتهم.

ولثبت لنا أن الحشيشة تشل التفكير وتخدر العقل وتجعل شاربها أو مدخنها يهذي ويبوح بكل ما يتفاعل في أعماقه من أسرار ربما كان يكتمها ويحافظ عليها لو لم يدمن الحشيشة.

بينما نرى أن الفدائي الإسماعيلي كان يمتاز بالفطنة واللباقة والدقة التامة في تنفيذ كل ما يلقى على عاتقه من مهمات خطيرة، بحرص شديد وكتمان مكين، وهذا كله لا يتفق مع الادمان.

ولا غرو فإن فساد البيئة وسوء حالة المجتمع واضطراب العقائد عوامل قوية في إيجاد المنظمات والجماعات من براثن الفساد والفوضى بوسائل مختلفة تتناسب مع الفوضى والظروف.

أما الشجاعة والإقدام وروح التضحية فهي من الخصائص اللازمة لكل ثائر مجاهد، ولا أعتقد أنه يحتاج إلى تناول الحشيش لإيقاظ الجرأة والاقدام فيه.

فتاريخ الحركات الدينية والسياسية حافل بمظاهر تلك الشجاعة ولاسيما تاريخ الإسماعيلية الذين طالما ذاقوا مرارة الظلم والاضطهاد.

وليست الجنة التي أوجدها الحسن لأتباعه في (ألموت) سوى جنة يانعة من الرفاه سادها الأمن وخيم عليها الهدوء والطمأنينة وعبق في أجوائها الرحبة الإخلاص والإخاء والتضامن في ظروف كانت تموج بالفوضى وتعج بعسف الحاكم وجور الولاة وسوء الحالة الاقتصادية التي هبطت إلى الحضيض.

وليس تأثير الفدائية وانصياعهم التام وطاعتهم العمياء لأموار رؤسائهم إلا من تبادل الثقة بين الرئيس والمرؤوس والإيمان القوي المطلق بعقيدتهم المثلى وبإمامهم الذي يبذلون أرواحهم رخيصة في سبيله لأنهم يعتبرون أنفسهم جزءاً من النفس الكلية فهم يتوقعون ويشتاقون إلى اليوم الذي يعود فيه هذا الجزء إلى كليته حيث السعادة الأبدية السرمدية.

ونحن لا ننكر أن الفدائية كانوا يغتالون من تسول له نفسه مناصبهم العداء لاسيما الأمراء والملوك والوزارء الذين كانوا يُجردون عليهم الحملات التأديبية ويبعثون بجيوشهم لمحاربة الإسماعيلية لأن ذلك حق طبيعي مشروع للدفاع عن النفس.

وليست أنظمة المغاوير وأنظمة الفدائية التي تطبق في وقتنا الحاضر في جميع أنحاء العالم إلا صورة مستقاة من الأنظمة التي أوجدها الحسن بن الصباح.

ولابد لنا من الإشارة إلى مقال كتبه المستشرق الروسي البروفسور إيفانوف تحدث فيه عن واقعية القلاع الاسماعيلية في فارس ومعاقلهم الحصينة بعدما زارها خلال تجواله لقسوة الطقس، في سبيل التحقيق العلمي المجرد البعيد عن العاطفة.

ولقد زين مقاله بصورة للتوضيح فجاء آية في الدقة والروعة ولم يتساهل إيفانوف في مناقشة المؤرخ التتري عطا ملك الجويني لما أورده في كتابه - (جهان كوشاي) نقاشاً يستند إلى فهم عميق للناحية العسكرية والاستراتيجة من جهة ومقارنة الأرقام والارتفاعات ودرجات الحرارة من جهة أخرى.

وقد تساءل أيفانوف في مقاله عن (جنة الأرض) المزعومة التي أتى على ذكرها أغلب المؤرخين والكتاب بقوله: أي جنة وارفة الظلال في أرض يجتاحها الشتاء بجليده وزمهريره سبعة أشهر في العالم لا يمكن معها معيشة حي غير الإنسان لذلك كانوا يبعدون الحيوانات الداجنة إلى القرى المجاورة طول فصل الشتاء الشديد البرودة.

ونعود بعد هذا إلى تفصيل أوضاع الإسماعيلية النزارية في ألموت وغيرها تاركين الكلام للسيد محمد حسين الجلالي الحسيني:

الدعوة الإسماعيلية الجديدة.

جاء في كتاب تاريخ الفلسفة العربية: (ليس في التاريخ الإسلامي- ولا في التاريخ العام على ما نظن - جماعة تضاربت فيها الآراء كما تضاربت في الإسماعيلية).

ولا يزال الغموض يشمل تاريخها حتى اليوم مع أنها ملأت عصوراً عدة ودكت عروشاً وشيدت دولاً . انتهى

والوصف المتقدم ينطبق تماماً على فرقة واحدة من الإسماعيلية التي عرفت في التاريخ بالنزارية ومحلياً في إيران بالملاحدة وفي سورية بالحشيشية قديماً واليوم يعرفون بالآغاخانية ولايتعداها فإن تاريخ الفرقة الأخرى من الإسماعيلية أعني (المستعلية) يبدو واضحاً نسبياً وأما النزارية فقد تستروا بقناع كثيف جعل من الصعب على المؤرخ الوصول إلى -الرأي الجازم بشأنهم- وقد يكون المؤرخ ابن جرير الطبري المتوفي (٣١١هـ - ٩٢٣م) أقدم من تعرض للإسماعيلية في تاريخه، كما كان أوسع من بحث عنهم هو المستشرق الروسي إيفانوف.

انشقت الإسماعيلية في الأصل من الشيعة بعد وفاة الإمام جعفر بن محمد (الصادق) (١٤٨هـ- ٧٧٥م) فقالت بإمامة إسماعيل بن جعفر (١٥٩هـ - ٧٨٥م) بينما قال بقية الشيعة بإمامة موسى بن

جعفر (١٨٣هـ - ٧٩٩م) ثم تسلسل عقب إسماعيل المستترين عن أعين الأعداء حتى عبد الله المهدي (٢٦٥هـ -٩٧٥م) الذي أسس الخلافة الفاطمية في (٣٦٣هـ -٩٧٢م) وكانت الخلافة الفاطمية بمصر أقوى دولة شيعية عرفها التاريخ وكانت الشيعة عموماً تتعاطف مع الخلافة الفاطمية رغم الخلاف العقائدي فيما بينهم فهذا الشريف الرضي محمد بن أحمد الموسوي (٤٠٦هـ ١٠١٥م) وهو شيعي جعفري يمدح الخلفاء الفاطميين في قصيدته المشهورة التي منها قوله:

ما مقامي على الهوان وعندي — مقول صـــارم وأنف حمي
أحمل الضيم في بلاد الأعادي — وبمصر الخليفـــة العلوي
من أبوه أبي ومـــولاه مـولاي — إذا ضامني البعيد القصـي
لفَّ عرقي بعرقه ســـيد النـا — س جميعـــاً محمد وعلي

وبلغت الخلافة الفاطمية أوجها في حكم المستنصر بالله (٤٨٧هـ -١٠٩٤م) الخليفة الثامن الفاطمي ثم أخذت تنحدر بسبب الانشقاق الداخلي إلى الانقراض وقبل ذلك أصبح (بدر الجمالي) الحاكم العسكري واستولى على مهام الخلافة وأصبح (داعي الدعاة) (وأمير الجيوش) و(وزيراً) وكان الشعب يبدي سخطاً شديداً تجاه حكومة الجمالي.

ثم قام مقامه الأفضل، وكان ابن الخليفة الأصغر المستعلي أحمد (٤٩٥هـ - ١١٠١م) قد تزوجت أخت الأفضل فكان من الطبيعي أن يرشحه للخلافة بعد وفاة المستنصر ومن الطبيعي أيضاً أن يضايق الابن الأكبر المصطفى بالله نزار (٤٨٧هـ - ١٠٩٤م) الذي ادعى الخلافة لنفسه.. ولم يجد مناصاً من الهرب إلى الاسكندرية فقام بالثورة مع تأييد محلي ثم أسر وقتله الأفضل الجمالي (أمير الجيوش). ومن هنا انشقت الإسماعيلية إلى فرقتين مستعلية ونزارية:

١ - المستعلية:

وهم القائلون بإمامة الخليفة الفاطمي (المستعلي) الابن الأصغر للمستنصر بالله (٤٩٥هـ- ١١٠١م) الذي أصبح خليفة بعد أبيه.

وأتباعه لا يزالون في الهند والباكستان وشرق إفريقيا واليمن ويعرفون اليوم بالبهرة وقديماً بالمستعلية وقد انشقوا فيما بعد إلى سليمانية ومركزهم باليمن وداودية ومركزهم بالهند.

٢ - النزارية:

وهم القائلون بإمامة (المصطفى بالله نزار) الابن الأكبر للمستنصر بالله (٤٩٠هـ - ١٠٩٧م) وقد تزعم قيادتهم حسن الصباح الحميري المتوفى (٥١٨هـ-١٢٢٤م) وأول ما قام به هو أن عمل على اغتيال الأفضل الجمالي أمير الجيوش المسؤول الأول عن عزل وقتل نزار في (٥١٥هـ -١١٢١م) ثم عمل على اغتيال الخليفة الآمر بن المستعلي نفسه (٥٢٤هـ -١١٢٩م).

وقد اتخذت الدعوة الجديدة النزارية من بلاد فارس مكاناً لنشاطها وجعلت من قلعة ألموت عاصمة لدعوتها وتسلست الإمامة في نسل نزار ويعرفون اليوم بالآغاخانية وهم في الغالب بالهند والباكستان وشرق إفريقيا وإيران وسورية.

وإليك ثبتاً بتسلسلهم إلى نزار كما أورده الإسماعيلي النزاري مصطفى غالب المعاصر في كتابه تاريخ الدعوة الإسماعيلية.

٢٠ - نزار بن المستنصر (المصطفى بالله) توفي ٤٩٠هـ -١٠٩٧م.

٢١ - علي بن نزار الهادي ٥٣٠هـ -١١٣٧م.

٢٢ - محمد بن علي بن نزار (المهتدي) ٥٥٢هـ -١١٥٩م.

٢٣ - حسن بن محمد بن علي (القاهر) ٥٥٧هـ -١١٦٤م.

٢٤ - حسن بن حسن بن محمد (على ذكره السلام) ٥٦١هـ -١١٦٨م.

٢٥- . محمد بن حسن بن حسن (أعلا محمد) ٦٠٧هـ -١٢١٤م

٢٦- . حسن بن محمد بن حسن (جلال الدين) ٦١٨هـ - ١٢٢٥م

٢٧ - علاء الدين محمد بن جلال الدين ٦٥٣هـ -١٢٦٠م.

٢٨- . ركن الدين خيروشاه (خورشاه) بن علاء الدين ٦٥٤هـ -١٢٦١م

٢٩ - شمس الدين محمد بن ركن الدين ٧١٠هـ -١٣١٧م

٣٠ - قاسم شاه بن شمس الدين محمد ٧٧١هـ ١٣٨٧م

٣١ - اسلام شاه بن قاسم شاه ٨٢٧هـ -١٤٣٤م

٣٢ - محمد بن إسلام شاه ٨٦٨هـ -١٤٧٥م

٣٣ - المستنصر بالله الثاني بن محمد بن إسلام ٨٨٠هـ ١٤٨٧م

٣٤ - عبد السلام شاه ابن المستنصر ٩٩٩هـ ١٥٠٦م

٣٥ - غريب ميرزا بن عبد السلام ٩٠٢هـ -١٥٠٦م

٣٦ - أبو ذر علي بن غريب ٩١٥ هـ -١٥٢٢م

٣٧- مراد ميرزا بن أبي ذر ٩٢٠هـ -١٥٢٧م

٣٨ - ذو الفقار علي بن مراد ٩٢٢هـ -١٥٢٩م

٣٩ - نور الدين علي بن ذي الفقار ٩٥٧ هـ -١٥٦٤م

٤٠ - خليل الله علي بن نور الدين ٩٩٣ هـ - ١٦٠٠م

٤١ - نزار الثاني بن خليل الله ١٠٣٨هـ -١٦٤٥م

٤٢ - سيد علي بن نزار الثاني ١٠٧١ هـ -١٧١٣م

٤٣ - حسن علي بن سيد علي ١١٠٦ هـ - ١٧١٣هـ

٤٤ - قاسم علي بن حسن علي ١١٤٢هـ - ١٧٥٠م

٤٥- أبو الحسن علي بن قاسم علي ١١٩٤ هـ -١٨٠١م

٤٦- خليل الله علي بن أبي الحسن ١٢٣٣هـ -١٨٤٠م

٤٧ - حسن علي شاه (آغاخان الأول) ١٢٩٨هـ ١٨٨١م

٤٨ - علي شاه بن حسن علي (آغا خان الثاني) ١٣٠٢ هـ -١٨٨٥م

٤٩ - سلطان محمد شاه علي (آغا خان الثالث) ١٣٧٤هـ ١٩٥٧م

٥٠ - كريم شاه علي (آغا خان الرابع) استلم الإمامة بعد وفاة جده آغا خان الثالث وفي الوقت الذي نجد دعوة التسلسل في الأئمة عند الآغاخانية حتى اليوم. نرى أن هناك شخصيات إسماعيلية تتفوق بنشاطها الديني والسياسي على الإمام منها شخصية معنوية بينما يكون الإمام شخصية معنوية ليس إلا فهناك مثلاً:

١- شيخ الجبل الأول: عبد الملك بن عطاش

٢ - شيخ الجبل الثاني: الحسن بن الصباح

وهما معاصران للإمام العشرين نزار بن المستنصر المصطفى بالله ٤٩٠هـ -١٠٩٧م ولم نجد لأولاده أي نشاط يذكر سوى سرد أسمائهم في تاريخ الآغاخانية أنفسهم فقط.

حيث سردوا مجرد أسماء للأئمة من نسل نزار وهذا مما يدعو إلى الشك والريب إذ كيف تغفل التواريخ عن مثل ذلك ولماذا لم يؤثر عنهم أي نشاط فكري أو سياسي والأئمة هم:

١ - علي بن نزار الهادي ٥٣٠هـ - ١١١٧م

٢ - محمد بن علي المهتدي ٥٥٢هـ ١١٥٩م

٣ - حسن بن محمد بن علي القاهر ٥٥٧هـ ١١٦٤م

١ - شيخ الجبل الأول: عند الملك بن عطاش

يقول فيه مصطفى غالب في تاريخ الدعوة الإسماعيلية:

ولد شيخ الجبل الأول سيدنا الحكيم أحمد بن عبد الله بن عطاش في بلاد فارس سنة ٤٢٧هـ -١٠٤٥م من أبوين إسماعيليين كان والده عبد الملك حكيماً متعمقاً في علوم الفلسفة الروحية الإسماعيلية والفقه الإسماعيلي فأصبح ابنه متقفيا أثر أبيه فأصبح في مدة وجيزة من أكبر علماء إيران وأعظم دعاة المذهب الإسماعيلي فيها عرج على بث الدعوة الإسماعيلية في القاهرة ٤٧٠هـ - ١٠٧٧م تنتهي دراسته المذهبية على يد الإمام ثم عين كبيراً لدعاة بلاد فارس والري وما وراء النهر وصل إلى الري عام ٤٨٤هـ - ١٠٩١م.

٢ - شيخ الجبل الثاني: الحسن بن صباح ٥١٨هـ - ١١٢٤م

قال فيه مصطفى غالب: ولد الحسن بن صباح الحميري شيخ الجبل الثاني سنة ٤٣٢هـ ١٠٤٠م في بلدة معصوم من مقاطعة الري وهو ينتسب إلى ملوك اليمن الحميريين.

تثقف وتأدب على الموفق لدين الله النيسابوري في مدينة نيسابور مع الشاعر عمر الخيام والوزير نظام الملك فتوثقت عرى الصداقة بينهم وتعاهدوا فيما بينهم على اقتسام السعادة التي يحصلون عليها في حياتهم العملية.

تعلم المذهب الإسماعيلي على شيخ الجبل الأول عبد الملك بن عطاش فأظهر تفوقاً كبيراً ونبوغاً أدهش أساتذته ومؤدبيه، فأرسل إلى القاهرة لإنهاء دراسته المذهبية في دار الحكمة (٤٧٩هـ -١٠٨٦م) إبان خلافة الإمام المستنصر وبقي هناك ثمانية عشر شهراً ثم عين كبيراً لدعاة الشام

وديار بكر والجزيرة والروم وقبل أن يغادر القاهرة قابل الإمام المستنصر وسأله: من إمامي بعدك يا مولاي؟ فقال له: ولدي الأكبر نزار

وعاد إلى خرسان فدخل ما وراء النهر وتمكن من الاستيلاء على قلعة ألموت الحصينة من أعمال أصفهان فجعلها مثوى له ونظم شؤون الإسماعيلية تنظيماً دقيقاً وأوفد الدعاة إلى جميع البلدان والأقاليم ووجه اعتناءه الزائد لتنشئة الفرقة الفدائية التي كان يرأسها.

والثالث يصفه مصطفى غالب قائلا: شيخ الجبل الثالث هو سنان بن سليمان بن حمد ويكنى بأبي الحسن وراشد الدين ولد في ألموت سنة ٥٢٨هـ -١١٣٣م وتثقف في مدرسة الإمام القاهر بقوة الله ثم أوفد إلى العراق فاستقر بالبصرة حتى ٥٥٨هـ -١١٦٢م فأوفد لإدارة شؤون الإسماعيلية في جبال السماق وحلب من سورية وبعد مدة أمر بالذهاب إلى مصياف فاتخذها مقراً له وعاصمة للدولة الإسماعيلية التي كانت مستقلة استقلالاً تاماً عن الدولة السورية.

لعب دوراً رئيساً في السياسة السورية والمصرية وكان حجر الثقل في العالم الإسلامي.

هذا ما يذكره التاريخ الإسماعيلي عن شيوخ الجبل والأئمة ولكن المؤرخ الفارسي رشيد الدين الهمذاني يعطينا صورة واضحة عن شيوخ الجبل في إيران بالإضافة إلى الدقة التامة في الوصف وبذلك نستطيع الاعتماد عليه لقرب عصره ودقته يقول ما تعريبه:

في ٥١٨هـ -١١٢٤م أصبح «الصباح» مريضاً فاستخلف بزرك أميد على الملك وأرسل شخصاً إلى لمسر ليجلب بزرك أميد وعينه خليفة له وجعل دهدار أبو علي حاكم أردستان على يمينه وأوكل إليه بشكل خاص أمر ديوان الدعوة وجعل ابنه آدم قطران عن شماله وكيابا -جعفر-الذي كان قائد عساكره وعهد إليهم أن يعمل الأربعة في وفاق واتفاق حتى يجيء الوقت الذي يأتي فيه إمام فيستولي على مملكته وفي ليلة الأربعاء السادس من ربيع الثاني ٥١٨هـ - ١١٢٤م هرع بعيداً على نار الله وجحيمه.. انتهى

وانتهى حكم بزرك أميد بموته في ٥٥٣٢ - ١١٣٨م

وقتل الحسن بن الحسن بن محمد في سنة ٥٦١هـ -١١٦٢م فخلفه ابنه محمد في التاسعة عشرة من عمره ومات محمد الثاني في ٦٠٧هـ -١٢١٠م.

وخلفه ابنه جلال الدين حسن نومسلمان في ٦١٨هـ -١٢٢٥م. وخلفه ابنه علاء الدين وهو صبي في التاسعة من عمره أو بعد أن حكم لبضع سنوات ابتلى بمرض الماليخوليا.

وفي سنة ٦٥٣هـ -١٢٥٥م ازداد جنون علاء الدين واشتد الصراع بينه وبين ابنه ركن الدين خورشاه واراد نقض ولاية العهد فأصبح أعيان الدولة غير آمنين على أنفسهم من سطوة علاء الدين وكان ركن الدين يقول: «بسبب سوء تصرف أبي يعتزم المغول على قتال مملكته وبما أنه ليس مهتماً بشيء أنا سأنفصم عنه وأرسل رسلاً إلى الإمبراطور المغولي وأقبل الخضوع والولاء واضمن لشعبي وأرضي بأن يبقيا».

وفي هذه الظروف اغتيل علاء الدين من قبل المازندراني أخص خواصه وقيل إن ذلك كان بتحالف مع ركن الدين ومهما كان فقد قتل ركن الدين خورشاه المازندراني المذكور وخلف أباه، وفي عهده قضى المغول على الإسماعيلية في إيران واستولوا على حصونهم فقد كان في المخطط المغولي القضاء على الإسماعيلية وتعاقبت الفتوحات المغولية للشرق بقيادة جنكيز خان حتى منتصف القرن السابع الهجري الثالث عشر للميلاد حيث أرسل منكوقا آن جيشاً بقيادة أخيه هولاكو للقضاء على الإسماعيلية، يقول رشيد الدين في جامع التواريخ.

«وفي العاشر من شوال سنة ٦٥٤هـ - ١٢٥٦م استعد هولاكو خان للهجوم على حدود ولاية الملاحدة، وبعث رسولاً مرة أخرى برسالة إلى خورشاه يخاطبه فيها بعبارات فيها الترغيب والترهيب فلما استشار خورشاه الأمراء والأعيان في ولايته صار كل منهم يقول ما يمليه عليه رأيه وأخيراً استقر الرأي على أن يرسل إلى هولاكو الخواجه نصير الدين الطوسي نور الله قبره مع طائفة من الوزراء والأعيان والكفاة والأئمة يحملون التحف والطرائف الكثيرة فوصلوا إلى معسكر الأيلخان في يوم الجمعة السابع والعشرين من شوال فأنزلهم المغول في أماكن متفرقة وتحدثوا الواحد بعد الآخر.

وفي يوم الأحد غرة ذي العقدة نزل خورشاه من القلعة بناء على مشورة أعيان الدولة وتوجه إلى هولاكو في صحبة الخواجه نصير الدين الطوسي والخواجه أصيل الدين الزوزني والوزير مؤيد الدين (جد المؤلف) وأبناء رئيس الدولة فودع بذلك هذا الحصن الذي ظلت أسرته تتخذه مقراً لها مدة قرنين».

والمصادر التاريخية اختلفت في بقاء النسل الإسماعيلي لأئمة (ألموت) إلا أن الآغاخانية اليوم يحتفظون بسلسلة نسبهم وقد سردناها من قبل وسيأتي بعض النصوص في ذلك في فصل نهاية الحكم الإسماعيلي.

لقد اتسمت الدعوة الإسماعيلية الجديدة بصفات ثلاث بارزة مكنتها من السيطرة والنفوذ الكاملين لولا اصطدامهما أخيراً بقوة الإمبراطورية المغولية والصفات هي:

أولاً: التحصن الطبيعي

ثانياً: التنظيم الفدائي

ثالثاً: الفلسفة الجديدة

فينبغي أن ندرس هذه الصفات والميزات الرئيسة للتعرف على هذه الفرقة.

أولاً: التحصن الطبيعي

المواقع الحصينة التي اختارها الإسماعيليون قواعد لنشاطهم الديني والسياسي كانت في منتهى الدقة والأحكام، ولولا هذا التحصن لأمكن القضاء عليهم في الأيام الأولى من نشوئهم وسنحاول دراسة أهم هذه القلاع بما تساعدنا المصادر المتيسرة.

لا ريب في أن حسن الصباح كان يفكر في قاعدة سرية لدعوته تتمتع بالحصانة الطبيعية

وبالفعل وقع اختياره -وهو مطارد- على قلعة ألموت وهذه القلعة كانت قلعة ألموت وهذه القلعة كانت مبنية على قمة جبل وتتحكم بواد مزروع ومغلق طوله نحو ثلاثين ميلاً وعرضه -في أعرض نقاطه حوالي ثلاثة أميال وهي على ارتفاع أكثر من ٦٠٠٠ قدم فوق سطح البحر لا يمكن الوصول إليها إلا بواسطة ممر ضيق منحدر حلزوني وكانت هذه القلعة للسلطان السلجوقي أخذها منه رجل علوي يدعى مهدي وأعاد بناءها في ٢٤٦هـ -٨٦٠م.

ذكر زكريا القزويني ٦٨٢هـ -١٢٨٣م في آثار البلاد عن تسمية هذه القلعة ألموت بقوله: الموت قلعة حصينة من ناحية روزبارد بين قزوين وبحر الخزر على قلعة جبل وحولها وهاد لا يمكن نصب المنجنيق عليها ولا النشاب يبلغها وهي كرسي ملك الإسماعيلية.

قيل أن بعض الملوك الديلم لديهم أرسل عقاباً للصيد وتبعه فرآه وقع على هذا الموضع فوجده موضعاً حصينا اتخذه قلعة سماها (اله الموت) إله: العقاب وألموت مخفف آمخوخت بمعنى التعليم أي تعليم العقاب بلسان الديلم ومنهم من قال اسم القلعة بتاريخها لأنها بنيت سنة ٤٤٦هـ - ١٠٤٥م ست وأربعين واربعمائة وهي (م و ت)

وقال الشهرستاني في (الملل والنحل) في ترجمة حسن الصباح: كان بدو صعوده إلى قلعة آلموت في شعبان سنة ٤٤٨ هـ -١٠٩٠م وذلك بعد أن هاجر إلى بلاد إمامة والذي أظنه أن التسمية كانت من الإسماعيليين أنفسهم مستخدمين العامل النفسي في ضعضعة العدو وبكلمة (ألموت) التي تدل على الرهبة وتقرير المصير.

ورأينا في هذا تطابق العدد الحرفي على تاريخ استيلائهم عليها حيث كان بإمكانهم تغيير مواضع الحروف فيسمونها (توم) مثلاً كما وإني أرى كلمة (ألموت) بكامل حروفها تعادل تاريخ سنة ٤٧٧هـ -١٠٨٤م لا كما ذكره القزويني حيث ذكرها ثلاثة حروف أي (موت) فعادلت سنة ٤٤٦هـ ١٠٥٤م إذ أن تاريخ بناء القلعة غير معروف إلا ان مهدي العلوي جددها سنة ٢٤٦هـ -٨٦٠م ولم يتعرض المؤرخ الهمذاني في جامع التواريخ إلى تاريخ استيلائهم صريحاً لكنه قال في عام القضاء على الإسماعيلية أي سنة ٦٥٤هـ -٢٥٦م بأن خورشاه ودع هذا الحصن الذي ظلت أسرته تتخذه مقراً لها مدة قرنين.

وبما أن القرن يعادل مائة سنة فنستنتج أن تاريخ الإستيلاء كان حسب رأي الهمداني سنة ٤٥٤هـ -١٠٦٢م أم يكون الفارق بينه وبين ما رأيناه ثلاثة وعشرين عاماً وأظن أن الهمذاني لم يكن بصدد التحديد لذلك كان وصفه وصفاً تقريبياً.

وقد استولى عليها (حسن الصباح) حيث أرسل أصحابه للعمل في القرى حول القلعة وتحول بعض الناس في القلعة إلى الإسماعيلية وتظاهر الملك العلوي بولائهم وبعدما عرفهم أخرجهم جميعاً من القلعة وأغلق الأبواب قائلاً: إنها ملك للسلطان وبعد عدة محاولات قبلهم..

ودخل (حسن) الصباح القلعة سراً فعرف الملك ذلك لكنه كان عاجزاً عن الردع ووطد فيها ملكاً ولم يخرج منها قط إلى أن مات فيها.

لقد عاش فيها وانشغل بقراءة الكتب ووضع كلمات الدعوة وبالكتابة وبإدارة أعمال مملكته حيث عاش حياة زهد وتقشف وورع.

وهكذا ظلت ألموت عين القلاع الإسماعيلية ويؤرخ (مصطفى غالب) ولادة عدد من الأئمة الإسماعيلية في قلعة ألموت وهم:

١ - الحسن بن محمد بن علي بن نزار (الظاهر بقوة الله) ٥٢٠هـ -١١٢٦م ولد بألموت

٢- الحسن علي بن الحسن من محمد بن علي بن نزار ٥٣٩هـ - ١١٤٤م ولد بألموت

٤ - جلال الدين حسن بن أعلا ٥٨٢هـ - ١١٨٦م ولد بألموت

٥ - علاء الدين محمد بن جلال الدين ٦٠٨ هـ - ١٢١١م ولد بألموت

٦ - ركن الدين خورشاه بن علاء الدين ٦٢٩هـ - ١٢٣١م ولد بالموت

٧ - شمس الدين محمد بن ركن الدين خورشاه ٦٣٣هـ - ١٢٣٥م ولد بألموت

وقد صدت ألموت الهجمات المتكررة من أعدائها ولعل أقواها تلك التي أمر بها السلطان محمد تبر في سنة ٥٠١هـ ١١٠٧م إذ أرسل قوة بقيادة الوزير أحمد بن نظام الملك..

وطبيعي أنه لم ينس الانتقام من قتلة والده نظام الملك وعندما أصبح معلوماً أن حسن الصباح وأصحابه قد تركوا بدون قوة وطعام عين السلطان محمد ٥١٠هـ -١١١٧م الأتابك (نشتكين شير كير) قائداً للعساكر وأمر بأن يلقي الحصار على القلعة ومن أن الجيش كان على عتبة النصر إلا أنه تراجع وتوقف إثر نبأ وفاة السلطان محمد في أصفهان وفاز الإسماعيليون بالمؤن والسلاح وظلت القلعة حصناً حصيناً للإسماعيلية حتى هجم هولاكو، وهناك قلاع أخرى أقل أهمية من ألموت باعتبارها المركز الرئيسي وهي:

١. قلعة لمسر

استولى عليها الإسماعيليون ٤٩٦هـ - ١١٠٢م كان الحاكم فيها (كيا بزرك أميد) وبقي حاكماً مدة عشرين سنة وكانت تشكل هذه القلعة موقعاً استراتيجاً في منطقة رودبار وشاهرود.

٢. قلعة قوهستان:

اتصل حسن الصباح في ٤٨٤هـ -١٠٩١م بحسين القايني القوهستاني وارسله إلى قوهستان للدعوة واستجاب الأهالي لدعوته بسبب الضغط السلجوقي عليهم ونجحت ثورة الإسماعيلية.

٣. كركرة:

تقع هذه القلعة في جنوب (دامغان) وتشرف على الطريق الرئيسي بين خراسان وغربي إيران وكان حاكم دامغان (مظفر) إسماعيلياً يتظاهر بالولاء للسلجوقيين فطلب منهم أن يجعلوه حاكماً على هذه القلعة وبالفعل أصبح حاكماً ولما ملأها بالمؤن والخزائن أعلن تمرده على السلجوقيين وولائه لحسن الصباح وكان الاستيلاء عليها في ٤٩٠هـ -١٠٩٦م.

٤. شاه دز:

وكان يسيطر عليها عبد الملك بن عطاش وهي قلعة قريبة من أصفهان ويظهر من كثير من

المؤرخين الإيرانيين ومنهم رشيد الدين الهمذاني. إن القلاع الإسماعيلية كانت كثرة في العدد وتبلغ المائة قلعة محكمة البينان إلا أن اهم القلاع على الإطلاق قلعة ألموت التي كانت المركز الرئيسي لجميع الحركات الإسماعيلية باعتبار وجود المؤسس والرئيس الأعلى حسن الصباح فيها.

ثانياً: التنظيم الفدائي

إن الشهرة الواسعة التي رافقت الإسماعيليين كانت نتيجة للتنظيم الفدائي الدقيق الذي اتبعوه، والاغتيالات الواسعة النطاق للأمراء والقواد -ومهما كان التصوير الغربي وربما كان تصويراً نابعاً من الشرق- فإن الأعمال التي كانت تجري على أيديهم تعبر عن مدى شعورهم وتقديسهم للهدف.

فإنهم لم يكونوا قطاع الطرق أو لصوصاً وليسوا سحرة ولا حشاشين ولم يكونوا شياطين أو عطاشى للدماء البشرية بل الإسماعيلية النزارية في مبدئها: حركة ردة متطرفة تجاه الضغط المذهبي المتزايد والحكم المتطرف. واعترتها فترة انحراف الشريعة الإسلامية ولذلك عرف اتباعها محلياً في إيران بالملاحدة وعلى كل حال فقد كانت منظمة فدائية لا تقوم بأعمال العنف إلا لهدف مقدس عندها لا غير وهناك ما قاله الراهب الألماني (بروكارديوس) للملك فيليب السادس ملك فرنسا عندما عزم الملك في عام ٧٣٣هـ - ١٣٣٢م على الاستعداد لشن حملة صليبية جديدة بغية استرداد الأماكن المقدسة ففيما قاله الراهب دلالة على الشعور العام تجاه الإسماعيليين يقول بروكارديوس:

أنا اسمي بين هذه المخاطر الحشيشية الذين ينبغي لعنهم والفرار منهم لأنهم باعوا أنفسهم وهم عطاشى للدماء البشرية يقتلون البريء لقاء ثمن، ولا يكترثون من أجل حياة أو اخلاص، وهم كالشيطان يحولون أنفسهم على صورة ملائكة النور وذلك بتقليد حركات الشعوب والأقوام المختلفة وملابسهم ولغاتهم وعاداتهم وأفعالهم هكذا تصادفهم متخفين في ثياب الشياة فعليك أن تذيقهم الموت في اللحظة التي يميزون بها إنما عرفت هذا عنهم بما تواتر حولهم أو بالكتابات الصادقة لا يمكنني أن أبوح بأكثر من هذا ولا أن أقدم معلومات أوفى.. انتهى

وفي الحقيقة لم تكن هذه المعلومات مستقاة من مصدر إسماعيلي وإنما اعتمد على ما تلقاه من الأفواه ولاشك أنه كان هناك من يناهض الحركات الإسماعيلية ولا يبخل في كيل الشتائم.

يقول فردريك بروسا وكلا القولين مأخوذ من تاريخ الدعوة الإسماعيلية:

(يوجد في الجبال على أطراف دمشق وأنطاكية وحلب جنس معين من المسلمين يدعون محلياً بالحشيشية وفي الروماني (سادة الجبال) وتعيش هذه المخلوقات من الناس بلا قانون فهم يأكلون لحم الخنزير مخالفين بذلك الشريعة الإسلامية ويطأون النساء بلا تمييز بما في ذلك أخواتهم وأمهاتهم!!).

فهذا النصّ يرينا إلى أي حد بلغ خصوم الإسماعيليين في محاولة تشويههم وتهشيمهم ونسبة حتى ما لا يقبله العقل إليهم.

أما النسبة لتسميتهم بالحشيشية فالمعتقد أنها من أصل عربي نسبة إلى الحشيشة وانها كانت تطلق عليهم للأزدراء بهم وتحقيرهم وقد أصاب فريدرك حيث قال: يدعون محليا بالحشيشية فإنا نجد كلمة -الحشاش- حتى اليوم تستعمل في لبنان وسورية في مقام التحقير والازدراء.

وقد تقدم الكلام في تنفيذ حقيقة هذه التسمية كما أن تسميتهم بالملاحدة تسمية محلية كما تنص عليه كتب التاريخ وخاصة «الرشيدي» في مواضيع كثيرة من جامع التاريخ.

وحتى اليوم تستعمل كلمة الملاحدة محلياً في خراسان عامة وسبزوار ونيشابور خاصة حيث توجد السلالة الإسماعيلية النزارية وقد امتهن غالبهم السحر والشعوذة والدروشة.

ولنذكر ثلاث حوادث تكشف عن مدة تفاني (فدائيي الإسماعيلية لمبدئهم بما ذكره الهمذاني):

الحادثة الأولى:

عمل فخر الدين الرازي في دروسه لطلاب الفقه في الري مسألة خاصة في نقض وتجريح الإسماعيلية وعندما سمع سيد الموت بهذا قرر أن يضع حداً لذلك فأرسل إلى الري فدائياً أندس هناك كتلميذ وحضر دروس فخر الدين يومياً ولمدة سبعة أشهر حتى وجد الفرصة في رؤية أستاذه على انفراد في حجرته وذلك بحجة بحث مسألة معقدة ومباشرة امتشق الفدائي مدية وهدد الفقيه بها وقفز فخر الدين جانباً وقال: ماذا تريد أيها الرجل؟

فأجاب الفدائي: أريد أن أشق بطن حضرتك من الصدر إلى السرة لأنك لعنتنا على المنبر وبعد عراك رمى الفدائي فخر الدين على الأرض وجلس على صدره ووعد الفقيه المرعوب بالاستغفار وأن يمتنع عن مثل هذه المهاجمة في المستقبل وسمح لنفسه بالاقتناع.

وتقبل تعهداً قطعه فخر الدين بأنه سيقوم طريقه فأعطاه كيساً يحتوي ٣٦٥ ديناراً ذهبياً هذا مع مبلغ مماثل يدفعه كل سنة كبدل لخضوعه ومنذ لذلك الوقت أخذ فخر الدين في دروسه عن فرق الإسلام حيطة شديدة في تجنب تعبيرات معادية للإسماعيلية.

واسترعى هذا التغير انتباه أحد تلامذته فسأله عن سبب ذلك؟ فأجاب الأستاذ: إنه ليس من النصيحة بأن نلعن الإسماعيلية لأن لديهم حججاً ثقيلة وعويصة.

الحادثة الثانية:

تصاحب رسول إسماعيلي مع الوزير شرف الملك الخوارزمي وقد حصل الاسترسال فقال في بعض مجالس الشرب وقد أخذت الكؤوس منها مأخذها: إن لنا في عسكركم هذا جماعة من الفدائية وقد تمكنوا فصاروا كالواحد من غلمانكم من خدم اسطبلك ومنهم من خدم مقدم جاويشية السلطان.

فألح شرف الملك عليه أن يحصرهم ليبصرهم وأعطاه منديله علامة للأمان لهم فأحضر المذكور خمسة من الفدائية فلما وقفوا بين يديه وكان الواحد منهم هندياً وقحاً صار يقول لشرف الملك: كنت قد تمكنت في منزل كذا إلا أني كنت أنتظر ورود الأمر بإمضاء العزيمة فيك..

فرمى شرف الملك حين سمع كلامه الفرجية عن ظهره وقعد بين أيديهم بالقميص وقال ما سبب ذلك؟! وماذا يريد مني علاء الدين أو ما الذي صدر عني من الذنب والتقصير ليعطش إلى دمي وأنا مملوكه كما أنا مملوك السلطان وها أنذا بين أيديكم فافعلوا بي ما شئتم.

وبلغ خبر هذا الأمر للسلطان الذي غضب من خضوع شرف الملك وسير إليه حالاً أوامر بإحراق الفدائية الخمسة أحياء وتوسل الوزير من أجل العفو عنهم ولكن عبثاً واجبر على تنفيذ أوامر السلطان. فأوقدت على باب خيمته نار عظيمة ورمي أولئك الخمسة فيها فكانوا يحترقون وهم يقولون: نحن قرابين المولى (علاء الدين) إلى أن صاروا رمادا تذروه الرياح.

الحادثة الثالثة:

وهي تعطينا صورة واضحة عن خطورة الإسماعيلية النزارية.

تابع حسن الصباح إرسال السفراء إلى سنجر ينشدون السلاح ولكن عروضه لم تقبل وعندها تمكن بسبيل الخديعة من رشوة أحد حاشية السلطان ليدافع عنه إمام السلطان ثم رشا أحد خصيانه بمبلغ كبير من المال بجانب فراش السلطان وذلك في إحدى الليالي عندما كان السلطان مضجعاً نائما وهو مخمور وعندما استيقظ السلطان ورأى المدية امتلأ رعباً.

ولكن نظرا لعدم معرفة من يتهم أمر بأن تحفظ القضية سراً وأرسل بعدها حسن الصباح له رسولاً بالرسالة التالية:

(لو لم ابتغ للسلطان خيراً فإن تلك المدية التي ضربت في الأرض الصلبة كان يمكن أن تغرس في صدره اللين).

ورغب السلطان منذئذ بقبول السلام معهم هذا بالإضافة إلى سلسلة الاغتيالات التي قاموا بها في تاريخهم والتتبع الدقيق لطبيعة هذه الاغتيالات يوقفنا على أنها كانت مقصورة على الأعداء النشيطين -السياسيين والدينيين- ولم تتعدهم إلى المحايدين والأبرياء.

وكان في رأس الاغتيالات اغتيال نظام الملك الطوسي الذي قتله أبو طاهر الاراني في سنة ٤٨٥هـ -١٠٩٢م وهو في زي الصوفية ولاشك أن حكومة السلجوقيين الذين تطرفوا في التسنن واعتقدوا أن الواجب الأول هو القضاء على من ليس على مذهبهم في مختلف البلاد الاسلامية.

وقد نجحوا في ذلك -وإن كلفهم ثمناً باهظاً- هو الذي أوجد الحركة المتطرفة (أي الإسماعيلية الجديدة) فقامت بنشاطها الفعال في بلاد إيران والشام وقد اكتنفها غموض شديد لما تقتضيه الحركة من التستر والتقية. فالتبست بسبب ذلك -وحتى اليوم- المعالم الحقيقة لدعوتهم ونشاطهم.

ثالثاً: الفلسفة الجديدة

كانت الدعوة الاسماعيلية الجديدة -في مبدئها- حركة دينية سياسية وكانت نتيجة لحكم سني متطرف ولكن سرعان ما تطورت وأصبحت حركة فلسفية أرست لنفسها قواعد فلسفية خاصة مستندة إلى العقل المجرد وانعزلت عن الروح الدينية والشريعة بالمرة.. وهي وأن عادت

إليها روح الإيمان على فترة معينة إلا أنها وصمت بالإلحاد وسمي أهلها بالملاحدة.

وفترة الإلحاد هذه وإن بولغ فيها من جانب الأعداء لكنها تكشف عن انحراف كبير عن الخطوط العريضة للشريعة الإسلامية.

حلول القيامة الروحية:

تنص الشريعة على أن العالم اليوم عمل بلا حساب وفي الآخرة حساب بلا عمل وعلى هذا الأساس فيوم القيامة يوم نهاية الشريعة وقام الزعيم الإسماعيلي حسن بن محمد في سنة ٥٥٩هـ -١١٦٤م معلناً:

أن القيامة نوعان قيامة جسدية وهي تكون في العالم الآخر وقيامة روحانية وقد أعلنها على أتباعه فكان ما كان من الإباحة على أساس أن لا حرمات بعد اليوم واستنادا إلى القول: (لو ظهرت الحقائق بطلت الشرائع) وتعتبر هذه النقطة بارزة في تاريخ الإسماعيلية غيرت المعالم الأساسية لدعوتهم وأبرزتها وكشفت النقاب عنها ويحدثنا علاء الدين عطاء الملك بن بهاء الدين الجويني المتوفي ٦٥٨هـ - ١٢٥٩م عن حلول القيامة الروحية هذه قائلاً:

وفي اليوم السابع عشر من رمضان ذكرى مقتل علي في عام ٥٥٩هـ - ١١٦٤م تحت طالع السنبلة وعلامة السرطان أمر حسن بإقامة منبر في ساحة الموت متوجهاً نحو الغرب ومع أربع رايات كبار ذات أربعة ألوان أبيض واحمر وأصفر وأخضر على زواياه الأربعة وجمع الناس الذين سبق استدعاؤهم إلى ألموت من مختلف الأقطار في الساحة ورتب الذين من المشرق على الجانب الأيمن والذين على الجانب الأيسر من الشمال من رودبار والديلم في المقدمة مواجهين للمنبر.

وبما أن المنبر واجه المغرب فإن ظهور الجماعة كانت نحو مكة.

ونزل (حسن) عند الظهر من القلعة مرتدياً رداءاً أبيضاً وعمامة بيضاء واقترب من المنبر من الجانب الايمن وارتقاه بالسلام ثلاث مرات أولاً للديالمة ثم للذين على اليمين وبعد ذلك للذين على الشمال وجلس هنيهة ونهض بعدها واتكأ على سيفه وتكلم بصوت عال موجهاً خطابه لسكان الأكوان من جن وأنس وملائكة فأعلن أن رسالة قد جاءته من الإمام المستتر مع دليل جديد ثم قال:

إن إمام وقتنا قد بعث إليكم صلواته ورحمته ودعاكم عباده المختارين ولقد أعفاكم من أعباء تكاليف الشريعة وأتى بكم على البعث وبالإضافة إلى ذلك أن الإمام قد سمى الحسن بن محمد بن بزرك أميد.. خليفتنا وداعينا وحجتنا، وينبغي على شيعتنا إطاعته واتباعه في كل من أمور الدين والدنيا وأن يراعوا أوامره كمواثيق وليعلموا أن كلمته هي كلمتنا.

واضاف الجويني: وفي ذلك اليوم الذي اقترفت فيه هذه القبائح وأفشيت فيه تلك المساوئ في مأمون أباد عش الكفر ولعب الجميع على الجنك والرباب وشربوا الخمر بشكل مكشوف على نفس درجات ذلك المنبر وفي مكان جلوس الخطيب.

وقال أيضاً: وأكد حسن بالتصريح بأنه كما في عصر الشريعة إذا لم يطع إنسان ولم يعبد بل

تبع حكم القيامة بحجة أن الطاعة والعبادة هما أمران روحيان كان ينكل به ويرجم ويقتل، كذلك الآن في عصر القيامة إذا تقيد إنسان بحرفية الشريعة وواظب على العبادة الجسدية والشعائر فإن ذلك تعصب ينكل به ويرجم ويقتل من أجله.

وآن المعاد هو عندما يأتي الناس إلى الله وتظهر بواطن وحقائق الخلائق وترتفع أعمال الطاعة لأن كل شيء في هذا العالم هو عمل وليس هناك حساب ولكن كل شيء في العالم المقبل هو حساب وليس هناك عمل.

وهي هي القيامة الروحانية والقيامة التي وعدت وانتظرت في كافة الملل والمذاهب هي التي أظهرت من قبل حسن ونتيجة لهذا أعفي الناس من تكاليف الشريعة لأن عليهم -في فترة القيامة هذه- أن يتوجهوا بكل جوارحهم نحو الله ويهجروا كل الشعائر الدينية وجميع عادات العبادات القائمة فقد وضع في الشريعة بأن على الناس عبادة الله خمس مرات في اليوم وأن يكونوا معه وهذا التكليف ظاهرياً فقد ولكن الآن -في أيام القيامة- عليهم أن يكونوا دائماً مع الله في قلوبهم وأن يبقوا نفوسهم متوجهة دائماً نحو الحضرة الإلهية فإنها الصلاة الحقيقية.

وطبيعي أن يعارضه جمع من أهل الدين والورع من الإسماعيلية وكان في مقدمتهم أخو زوجة (حسن) وهو سليل بيت ديلمي نبيل (ولم يكن هذا الرجل -كما يقول الجويني- قادراً على تحمل دعاية هؤلاء الضالين رحمه الله وجزاه على حسن نيته خيراً- ففي يوم الأحد السادس من ربيع الأول ٥٦١هـ -١١٦٦م قام بطعن المضل في قلعة (لمسر) وهكذا مضى من هذه الدنيا إلى نار الله الموقدة)

ورغم هذه المقاومة السلبية من أهل الدين والورع بقيت هذه الدعوة مستمرة فقد خلف الداعي حسن المقتول في ٥٦١ هـ -١١٦م ابنه الثاني.

١ - ابنه الثاني محمد (علا محمد) في التاسعة عشرة من عمره المتوفي في ٦٠٧هـ -١٢١٠م وخلفه:

٢ - ابنه جلال الدين حسن الملقب (نومسلمان) المتوفي في ٦١٨هـ -١٢٢٥م وخلفه:

٣- ابنه علاء الدين محمد ٦٥٣هـ -١٢٦٠م وخلفه:

٤ - ابنه ركن الدين خورشاه (آخر ملوك الإسماعيلية) ٦٥٤هـ - ١٢٦١م.

ولكن الدعوة الجديدة لم تدم أكثر من عصر حسن وابنه محمد أي من سنة ٥٥٩هـ -١١٦٤م إلى ٦٠٤هـ -١٢١٠م وفيما بين التاريخين كانت حركات المعارضة قوية وشديدة وقد تزعمها جلال الدين -حفيد الداعي حسن- حتى لقب بنومسلمان وهو فارسي مركب من (نو) و(مسلمان) بمعنى جديد الإسلام فقد كان على خلاف أليه في الرأي والمعتقد فكانا خائفين ومحترزين كل منهما من الآخر وقد كاتب جلال الدين سراً خليفة بغداد وسلاطين وملوك البلاد الأخرى بأنه كان خلافا لأبيه مسلماً بالعقيدة وأنه عندما يحين دوره للحكم سيقوم بإعادة تمهيد قاعدة الإسلام وأظهر جلال الدين منذ لحظة وصوله إلى العرش الفروض الإسلامية وعنف قومه

لأخذهم بما أخذوا به ومنعهم بشكل صارم من الاستمرار في ذلك وحثهم على الالتزام وإتباع رسوم الشريعة. وربما كان السبب في ذلك كله التأثير المباشر من والدته التي حجت بيت الله الحرام في سنة ٦٠٩هـ -١٢١٢م وعوملت في بغداد باعزاز وإكرام.

يقول الجويني في تاريخ جهان كشاي جويني:

(أمر جلال الدين بأن تحرق هذه الكتابات بحضور القزوينيين وحسب رغبتهم وتلفظ بلعن وطعن ضد آبائه وأسلافه وبكتاب تلك الدعوة ولقد رأيت كتاباً بيد أعيان وقضاة قزوين كان قد أملي من جلال الدين (حسن) تكلم فيه عن التزامه بالإسلام وقبول شعائر الشريعة والتبرؤ من الإلحاد ومذهب أجداده واسلافه.. وكتب جلال الدين بضع كلمات بخط يده في صدر الكتاب فذكر تبرأه من مذهبهم وذلك بأن اضاف اللعنة (ملأ الله قبورهم ناراً) هذا ما تحتفظ به التواريخ عن دعوى القيامة الروحية فإنها اتفقت على أن هذه الدعوة انبثقت في جو إسماعيلي بتأييد الأغلبية وأن اختلفت في سرد تفاصيل الواقعة وكيفيتها، بل اضطربت في ذلك واستندت إلى استنتاجات شخصية ويكفي للتمثيل أن نذكر ما ذكره الدكتور برنادولويس المتخصص بالدراسات الإسماعيلية اليوم فقد عقب على الواقعة قائلاً:

وعندما أكمل حسن خطابه نزل من على المنبر وأدى ركعتين صلاة العيد ثم مد سماط فدعاهم للإفطار والمشاركة في الوليمة وأن يطربوا وأرسل رسلاً تحمل البشائر السارة إلى الشرق والغرب.

وفي قوهستان أعاد (دزدلر) في قلعة (مأمون آباد) حفلة (ألموت) وأعلن نفسه خليفة (لحسن) وذلك من منبر متجه من الجهة المخالفة (كما جاء في الدعوة الإسماعيلية)، وهذا الكلام يكشف عن ضعف في الاستنتاج وذلك:

أولاً: لأن انتهاء الشريعة الذي أعلنه الإمام الإسماعيلي يقتضي عدم إقامة صلاة، فإن الصلاة فريضة إسلامية وقد انتهت الشريعة فرضاً.

وثانياً: من المستبعد أن يحتفل بذلك اليوم احتفالاً عيدياً، لأنه يوم قريب من مقتل الإمام علي (ع) حيث أنه ضرب بالسيف في ليلة التاسع عشر من رمضان ومات ليلة الحادي والعشرين من نفس الشهر، ورأى أن الأوفق أن تاريخ الإعلان كان في عيد رمضان أي أن الحسن صلى صلاة عيد الفطر الإسلامي ثم صعد المنبر وخطب خطبة دعا فيها على الإباحة وحلول القيامة الروحية.

وهذا الرأي وإن لم يؤيده نص تاريخي إلا أنه أقرب -باعتقادي- إلى الواقع ومهما كان فلا يمكننا التشكيك في أصل الدعوى، أعني حلول القيامة الروحية وإن اختلفت النصوص في كيفيتها.

فإن كثيراً من الحوادث التاريخية نجد الاختلاف فيها مع الاتفاق على حدوث الحادث بالإجمال.

والمصادر الإسماعيلية في العقائد قبل الدعوة تبدو معدومة والمصدر الوحيد الموجود اليوم

هو ما أورده محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ٥٤٨هـ -١١٥٣م في كتابه الملل والنحل في ترجمة ما كتبه حسن الصباح مؤسس الدعوة الجديدة قال ما نصه:

(ونحن ننقل ما كتبه بالعجمية إلى العربية، ولا معاب على الناقل والموفق من اتبع الحق واجتنب الباطل والله الموفق والمعين فنبدأ بالفصول الأربعة التي ابتدأ الدعوة بها وكتبها عجمية فعربتها قال:

(للمفتي في معرفة الباري تعالى أحد قولين: إما أن يقول اعرف البارئ تعالى بمجرد العقل والنظر من غير احتياج إلى تعليم معلم وإما أن يقول لا طريق إلى المعرفة مع العقل والنظر إلا بتعليم معلم صادق.. قال: ومن أفتى بالأول فليس له الإنكار على عقل غيره ونظره، فإنه قد علم والإنكار تعليم ودليل على أن المنكر عليه يحتاج على غيره.

قال والقسمان ضروريان فإن الإنسان إذا فتى بفتوى أو قال قولاً فإما أن يقول من نفسه أو من غيره وهذا الفصل الأول وهو كسر على أصحاب الرأي.

وذكر في الفصل الثاني: أنه إذا ثبت الاحتياج إلى معلم أفيصلح كل معلم على الإطلاق؟ أم لابد من معلم صادق قال ومن قال أنه يصلح كل معلم ما ساغ له الإنكار على معلم خصمه وإذا انكر فقد سلم أنه لابد من معلم معتمد صادق وهذا كسر على أصحاب الحديث.

وذكر في الفصل الثالث: أنه إذا ثبت الاحتياج إلى معلم صادق فلابد من معرفة المعلم أولاً والظفر به ثم التعلم منه أم جاز التعلم من معلم من غير تعيين شخصيته وتعين صدقه والثاني رجوع إلى الأول ومن لم يمكنه سلوك الطريق إلا بمقدم ورفيق فالرفيق ثم الطريق.

وذكر الفصل الرابع: أن الناس فرقتان فرقة قالت: يحتاج في معرفته تعالى إلى معلم صادق ويجب تعيينه وتشخيصه أولاً ثم التعلم منه وفرقة أخذت في كل معلم وغير معلم وقد تبين بالمقدمات السابقة أن الحق مع الفرقة الأولى ورأسهم بحيث أن يكون رأس المحققين وإذا تبين أن الباطل مع الفرقة الثانية فرؤساؤهم يجب أن يكونوا رؤساء المبطلين.

قال: وهذه الطريقة التي عرفتنا الحق بالحق معرفة مجملة ثم تعرف بعد ذلك حتى لا يلزم دوران المسائل وإنما عني بالحق منها الاحتياج وبالمحق المحتاج إليه.

وقال بالاحتياج عرفنا الإمام وبالإمام عرفنا مقادير الاحتياج كما بالجواز عرفنا الوجوب أي واجب الوجود وبه عرفنا مقادير الجواز في الجائزات، قال والطريق إلى التوحيد كذلك حذو القذة بالقذة.

ثم ذكر فصولاً في تقرير مذهبهم أما تمهيداً وإما كسراً على المذاهب وأكثرها كسر وإلزام واستدلال بالاختلاف على البطلان وبالاتفاق على الحق، منها فصل الحق والباطل والصغير والكبير يذكر أن في العالم حقاً وباطلاً ثم يذكر أن علامة الحق هي الوحدة وعلامة الباطل هي الكثرة وأن الوحدة مع التعليم والكثرة مع الرأي والتعليم مع الجماعة والجماعة مع الإمام والرأي مع الفرق المختلفة وهي مع رؤسائهم.

وجعل الحق والباطل والتشابه بينهما من وجه التمايز من وجه التضاد في الطرفين والترتيب

في أحد الطرفين ميزاناً يزن به جميع ما يتكلم فيه قال: وإني أنشأت هذا الميزان من كلمة الشهادة وتركيبها من النفي والإثبات أو النفي والاستثناء.

قال: فما هو مستحق النفي باطل وما هو مستحق الإثبات حق ووزن بذلك الخير والشر والصدق والكذب وسائر المتضادات ونكتته أنه يرجع في كل مقالة وحكمة إلى إثبات المعلم وأن التوحيد هو التوحيد والنبوة معاً حتى يكون توحيداً وأن النبوة هي النبوة والإمامة معاً حتى يكون نبوة.

❖ نهاية الحكم الإسماعيلي

كانت الإسماعيلية الجديدة قد القت الرعب في النفوس على المستوى العالمي -وذلك بكثرة الاغتيالات الحاصلة على أيديهم المقرونة بالنجاح ولاشك أن قوة كهذه تكون مرعبة، فحينما أحس المغول بالخطر الذي يتمثل في الكيان الإسماعيلي فكروا في القضاء عليه والابتداء بالإسماعيليين ثم بسط السيطرة على العالم على أن هناك نصاً مؤداه أن الإسماعيلية قتلوا واحداً من عظماء التتر ولذلك قال زكريا القزويني المتوفي ٦٨٢هـ -١١٨٣م في كتاب آثار البلاد: فلما عرف علماء الإسلام اعتقادهم وأخلالهم بأركان الدين افتوا بإلحادهم وجعلوا يغزوهم ويسبون منهم فقتل جمع من العظماء على يد الفدائية منهم الخليفة المسترشد ونظام الملك وبكتمر صاحب أرمن وأنقلمس صاحب العراق فخاف منهم ملوك جميع الأطراف وفي زمن المستعصم ظهر شخص باليمن يدعي إلى الخلافة فاجتمع عليه قوم بعثوا إليه فقتلوه وكانت شوكتهم باقية إلى أن قتلوا واحداً من عظماء التتر فحاصروهم وهم سبع سنين فتلفوا على القلاع جوعاً وهلكوا ومنهم من نزل فقتلوهم عن آخرهم واندفع شرهم وهذا رأي انفرد به القزويني ولم يذكره أحد من المؤرخين غيره إذ كيف يعقل أن تغفل كتل التاريخ عن مثل هذا السبب وخاصة أن المقتول من العظماء.

وكان كما خططه الرئيس المغولي -منكوقاآن- فأرسل أخاه هولاكو خان في شهر جمادى الآخرة ٦٥٠هـ -١٢٥٢م وقال في وصيته لهولاكو بالحرف الواحد كما جاءت في جامع التواريخ:

وخص كل من يطيع أوامرك ويجتنب نواهيك في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصي بلاد مصر بلطفك وبأنواع عطفك وأنعامك أما من يعصيك فأغرقته في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقربائه وكل مات يتعلق به.

وبدأ بأقليم قهستان في خراسان فخرب القلاع والحصون واهتمام الرئيس المغولي بإقليم قهستان لابد وان يكون للخطر المتوقع من هذا الإقليم وبالفعل حينما توجه الجيش إلى خرسان كان أول ما ابتدأ به هو قلعة قهستان فأرسل رسالة إلى حاكمها: (ناصر الدين أبي الفتح عبد الرحيم بن ابي منصور) الذي كان الطوسي قد ألف باسمه كتاب أخلاق ناصري وكان أول من استسلم.

ولنصغ إلى اقرب مؤرخ للحوادث وهو رشيد الدين الهمذاني يصف الحوادث النازلة بالإسماعيلية وقلاعهم حيث يقوم عن الاستسلام:

(أرسل هولاكوخان الملك شمس الدين كرت برسالة إلى ناصر الدين المحتشم في قلعة سرتخت يدعوه إلى الدخول في طاعته وكان حينذاك قد هرم وضعف فامتثل الأمر وقصد هولاكو في صحبته الملك شمس الدين في السابع عشر من جمادى الأولى ٦٥٠هـ -١٢٥٢م وقدم له أنواعاً كثيرة من التحف والهدايا بعد أن قَبَّل الأرض بين يديه فتعطف هولاكو وقبل تلك الهدايا وقال له: إنك نزلت من القلعة وقبلت الخضوع لإنقاذ حياة زوجتك وأبنائك فلماذا تنزل معك سكان القلعة وتحثهم إلى التسليم؟ فأجاب ناصر الدين أن لهم ملكاً يدعى خورشاه يأتمرون بأمره وبعد ذلك أنعم عليه هولاكو خان بلوحة ذهبية بايزة ومرسوماً برليغ ونصبه حاكماً على مدينة تون إلى أن توفي في شهر صفر ٦٥٥هـ -١٢٥٧م والبايزة لوحة من الذهب أو الفضة أو الخشب تهدى على من يتمتع بثقة دولة المغول والبرليغ: هو المرسوم الملكي وهنا طبعاً يكون المرسوم لحكومته على (تون).

وفي أوائل شهر محرم ٦٥١هـ -١٢٥٣م شرع في الهجوم على ولاية قهستان واستولى على بعض أجزائها ويقول أهالي قهستان: فلما بلغوا حدود قهسيتان قاوموهم الرعاع إلى حد ما ولكن المغول أسروهم جميعاً في مدة أسبوع وخربوا الأسوار واعملوا القتل والغارة في السكان وأخذوا الأسرى وتمركزوا في طوس.

ثم سار على رأس خمسة آلاف فارس وخمسة آلاف من الرجالة إلى أسف قلعة (كردكوه) وذلك في شهر ربيع الأول ٦٥١هـ -١٢٥٣م فأمر أتباعه بحفر خندق حول القلعة أحاطوه بسور محكم وعسكر الجيش خلفه وحول الجيش حفروا خندقاً آخر عميقاً جداً كما أقاموا سوراً مرتفعاً للغاية حتى يبقى الجيش سليماً بينهما وحتى لا يستطيع أحد من الجانبين التردد وأرسل جماعة أخرى للتخريب في اماكن أخرى وفي التاسع من شوال ٦٥١هـ -١٢٥٣م شنت حامية (كردكوه) غارة ليلية ودمروا معسكر المغول الحصين وقتلوا منهم مائة شخص كما قتلوا قائدهم الأمير بوري فما كان من كيتبوقا إلا أن شن هجوماً عنيفاً على ولاية قهستان وطارد جنوده جميع القوات الموجودة في نواحي تون وتوشيز وزيركوه واباحوا فيهم القتل والغارة وأسروا كثيراً منهم وفي هذا الوقت انتشر الوباء في القلعة وفي ليلة الأربعاء الأخير من ذي القعدة سنة ٦٥٣هـ -١٢٥٥م قتل علاء الدين حاجبه حسن المازندراني في مكان يدعى سركوه بينما كان غارقاً في نومه وهو سكران وذلك بالاتفاق مع خورشاه بن علاء الدين.

فعين خورشاه حاكماً للإسماعيلية مكان أبيه وقد اتهم عدة أشخاص بقتل علاء الدين ورغم أن حسن المازندراني هو الذي قتله بناء على مشورة ابنه خورشاه إلا أن هذا الأخير لم يستطيع الاعتماد عليه فكتب إليه رسالة وأعطاها فدائياً حتى يذهب إليه ويسلمها إياه فلما شغل بالقراءة قتله ذلك الفدائي ثم أعلن خورشاه أنه قتل حسناً لأنه هو الذي قتل والده وأمر بحرق أولاده في

الميدان، وبعد ثلاثة ايام أي يوم الأحد السادس والعشرين من ذي الحجة من تلك السنة استأنف القتال وفي طوس كما يحدثنا رشيد الدين:

أمر هولاكو بالسير وكان قد أوفد (بكتيمور قورجي) و(ظهير الدين سبلاد البيتكجي) و(شاه أمير) برسالة إلى خورشاه سلطان الملاحدة فذهبوا إليه وأبلغوه ما أمرهم به هولاكو خان ثم عادوا بعد أداء مهمهم في التاسع من جمادى الآخرة وفي اليوم نفسه وصل جيش المغول إلى قلاع الملاحدة وشرع في الهجوم العاشر من شعبان سنة ٦٥٤هـ -١٢٥٦م قدم هولاكو إلى خرقان وبسطام وأرسل مركتاي شحنة هراة بصحبة منكلمش برسالة أخرى إلى ركن الدين خورشاه وأمر بتخويفه ووعيده وفي العاشر من شعبان (أظن شوال لعدم صحة التكرار في سنة ٦٥٤هـ -١٢٥٦م غادر هولاكو بسطام وتوجه نحو قلاع الملاحدة ومرة أخرى ارسل في المقدمة رسلا ينذرون: لقد عقدنا العزم أنه إذا جاء خورشاه بنفسه لاستقبالنا فإننا سنعفو عنه رغم جرائمه العديدة.

وطبيعي أن تدوم المشورات في القلعة جارية والرسل متعاقبة والسفارة بين الجانبين مستمرة يقول رشيد الدين الهمذاني:

وفي ذلك الوقت كان مولانا السعيد خواجة نصير الدين الطوسي الذي كان أكمل وأعقل عالم وجماعة آخرون من الأطباء منهم رئيس الدولة وأبناؤه يقيمون لدى ملك الإسماعيلية مكرهين وكانوا قد رأوا أفعاله السيئة ووجدوا الظلم والتعدي متأصلين وشاهدوا مخايل الجور بادية على أحواله وكانوا قد رأوا أفعالهن السيئة ووجدوا ونفروا منهم ومالوا إلى هولاكو خان إلى أقصى حد ومن قبل كانوا يرغبون في ذلك فصاروا يتشاورون سراً لكي يحملوا هذا الملك يخضع لهولاكو على الوجه الأحسن والطريق الأسهل وانضم الكثير من الغرباء والمسلمين واتفقوا جميعاً على تحقيق هذا الهدف ولهذا السبب لم يدّخروا وسعاً في حث خورشاه على الخضوع والطاعة وصاروا يخوفونه مغبة المقاومة وعدم التسليم فاستجاب لنصحهم وأكرم وفادة الرسل وأوفد أخاه الأصغر شاهنشاه والخواجة أصيل الدين الزوزني مع طائفة أخرى من أعيان مملكته إلى هولاكو إظهاراً للخضوع والطاعة، وأما هولاكو فأمر باعزاز الرسل وإكرامهم وأعادهم مع جماعة من أصحابه برسالة إلى خورشاه قائلا:

إنه إذا كان قد قبل الخضوع والتسليم حقاً فإن عليه أن يخرب القلاع ويمثل بنفسه أمام هولاكو.

فأجاب خورشاه: إذا كان أبي قد أظهر التمرد والعصيان فإني أظهر الخضوع والطاعة ولكنه اشترط استسلام نفسه بعد سنة وبعد تكرار السفارة والرسالة وفيما بين العاشر والسابع والعشرين من شوال سنة ٦٥٤هـ -١٢٥٦م وللمرة الأخيرة أرسل هولاكو برسالة إلى خورشاه يخاطبه فيها بعبارات فيها الترغيب والترهيب ويعرض عليه فيها إنه إذا نزل من القلعة وترك المقاومة وتوجه إلى معسكر الخان فإن تصرفه هذا يكون سبباً في إنقاذ حياة طائفة كبيرة من الضعفاء والمساكين.

وإذا لم يقدم نفسه خلال خمسة أيام فإن عليه أن يستحكم قلاعه ويستعد للقتال.. فلما

استشار خورشاه الأمراء والأعيان في ولايته صار كل منهم يقول ما يمليه عليه رأيه، وأخيراً استقر ما يمليه عليه رأيه، وأخيراً استقر الرأي على أن يرسل إلى هولاكو «خواجة نصير الدين الطوسي» مع طائفة من الوزراء والاعيان والكفاة والأئمة يحملون التحف والطرائف الكثيرة فوصلوا إلى معسكر الإيلخانيين في يوم الجمعة السابع والعشرين من شوال فأنزلهم المغول في أماكن متفرقة وتحدثوا إليهم الواحد بعد الآخر وفي يوم الأحد غرة ذي القعدة ٦٥٤هـ -١٢٥٦م نزل خورشاه من القلعة بناء على مشورة أعيان الدولة وتوجه إلى هولاكو في صحبة الخواجة نصير الدين الطوسي والخواجه أصيل الدين الزوزني والوزير مؤيد الدين وأبناء رئيس الدولة.. فودع بذلك هذا الحصن الذي ظلت أسرته تتخذه مقراً لها مدة قرنين ثم جاء فقبل الأرض بين يدي السلطان الأعظم. وحينما وقع نظر هولاكو خان على خورشاه عرف أنه غلام غير مجرب يعوزه الرأي والتدبير فأعزه وأكرمه وفي الخميس العاشر من المحرم سنة ٦٥٥هـ -١٢٥٧م أنعم عليه مرسوماً ولوحة ذهبية برليغ وبايزه وخلع عليه وأودع مدينة قزوين متاعة وحاشيته.

ويقول رشيد الدين الهمذاني: ثم أرسله إلى بلاط منكوقان وفيما يتعلق بحادثة موته ترد روايات مختلفة متعارضة أرجحها وأوثقها أنه حينما وصل خبر قدومه إلى الخان قال: لماذا تحضرونه وتشقون بذلك عبثاً على الدابة التي يركبها.

ثم أرسل رسولاً من قبله فقضى على حياة خورشاه من قبله فقضى على حياة خورشاه ولما تخلصوا منه قتلوا أقاربه وأفراد أسرته من النساء والرجال حتى الأطفال الذين في المهد فيما بين (أبهو) و (قزوين) فلم يبق منهم أثر.

وفي شهر ربيع الأول ٦٥٥هـ -١٢٥٧م حيث قصد هولاكو همذان للتوجه إلى بغداد كان قد انتهى من كل شيء من القلاع الإسماعيلية والمقاومات السلبية بعد تسليم خورشاه كانت ضعيفة وفاشلة.. وفي الحقيقة كان المغول قد أبقوه فترة ليستفيدوا منه في إخضاع أصحاب القلاع الأخرى.

❖ الدعوة في سورية

قام الإسماعيليون بقيادة حسن الصباح بعدة محاولات لإقامة قاعدة لهم في سورية ولم يهتموا بالعراق ربما لعدم وجود حصون طبيعية ومواقع جبلية فيه بخلاف سورية وكانت أطماعهم بحلب أكثر من غيرها وكان الحاكم السلجوقي بحلب يدعى رضوان رجلاً متهاوناً في أمرهم وخاصة بالنظر إلى ضعفه العسكري وكثرة منافسيه.

واستفاد منهم وحرض زعيمهم الحكيم المنجم باغتيال عدوه جناح الدولة حاكم حمص فقتلوه في ٤٩٧هـ -١١٠٣م ولم يعش المنجم أكثر من أسابيع فخلفه أبو طاهر الصائغ وقد أعدوا العدة للاستيلاء على قلعة -فامية- وهي بيد حاكمها خلف بن ملاعب فاغتالوه بحيلة ورغم استيلائهم في البداية على القلعة استولى عليهم الأمير الصليبي لأنطاكية (تنكرد) وسمح لهم بالخروج فخرجوا إلى حلب.

وبسبب وفاة رضوان في ٥٠٧هـ -١١١٣م وازدياد عددهم وأعمالهم الإرهابية نفرت منهم العامة وضايقهم الحكام وبالنتيجة قام ابن البديع بالقبض على أبي طاهر الصائغ وقتله وقتل إسماعيل الداعي وأخا الحكيم المنجم والأعيان من هذا المذهب بحلب وقبض على زهاء مائتي نفس منهم وحبس بعضهم وشفع لبعضهم فمنهم من أطلق ومنهم من رمي من أعلى القلعة ومنهم من قتل وأفلت جماعة منهم فتفرقوا في البلاد..

وبعد أبي طاهر أصبح خليفته بهرام ابن أخي الأسد أبادي الذي أعدم في بغداد سنة ٤٩٥هـ- ١١٠١م وكان في غاية التستر وأعاد في بانياس تحصين القلعة والدعوة إلى قتل من قبل ضحاك بن جندل فخلفه إسماعيل.

وأخيراًتحصنت الاسماعيلية في جبل -بهراء- بعدة قلاع حصينة منها قلعة (قدموس) التي اشتراها الإسماعيليون عام ٥٢٧هـ -١١٣٢م وأجلوا الصليبيين عنها رغم محاولاتهم الاستيلاء عليها.

وقد اختلفت الاسماعيلية النزارية بعد إمامهم الثامن والعشرين شمس الدين محمد بن ركن الدين خورشاه ٧١٠هـ -١٣١٧م إلى ثلاث فرق:

١ - اتباع محمد شاه وتسلسل نسله الى طاهر شاه الثالث الدكني المتوفى سنة ٩٥٠هـ -١٥٤٣م بالهند وتبعه قسم من اسماعيلية سورية إلا أنه لم يعقب[1].

٢ - اتباع قاسم شاه ٧٧١هـ -١٣٨٧م وهو القسم الأكبر من الاسماعيلية هاجروا إلى ملتان في باكستان.

٣ - المتصوفة الاسماعيلية بزعامة إمام شاه ويعرفون بـ(ساتبانث) في كوجرات الهند إلا أن الفرقة الرئيسية من اتباع قاسم شاه تجمعت فيما بعد حول (حسن علي شاه) الملقب بآغان خان الأول المتوفي في ١٢٩٨هـ -١٨٨١م.

يقول برنارد لويس:

وأصبحت الاسماعيلية في إيران مستترة وأوقفت نشاطها وكان آخر رئيس لهم في إيران وهم في حالة سرية شاه خليل الله وقتل في ١٢٣٣هـ -١٨١٧م في يزد.

وقد قام مقامه ابنه (آغاخان) حاكماً لمحلات وقم في ١٢٣٤هـ -١٨١٨م ثم هاجر منها إلى الهند في ١٢٦٧هـ -١٨٥٠م بنتيجة حوادث قتل بين الإسماعيلية الذين يتبعونه والذين تمردوا عليه. وبعد أن أقام فترة قصيرة في أفغانستان والسند وكلكتا استقر أخيراً في بومباي وقد عارضه جماعة من الإسماعيلية وطلبوا من المحكمة العليا في نيسان سنة ١٢٨٣هـ -١٨٦٦م منعه من التدخل في شؤونهم. فانعقدت المحكمة برئاسة سير جوزيف آرنولد واستغرق سماع القضية

(١) طاهر شاه توفي سنة ٩٥٦ هـ وخلّف أربعة أولاد ذكورهم حيدر شاه وهو الإمام من بعده، ثم رفيع الدين حسين شاه، وأبي الحسن شاه وأبي طالب شاه، بالإضافة إلى أربعة بنات، (راجع بحثنا الإمام طاهر بن رضي الدين الدكني الحسيني.. ضوء على سيرته وموقعه من الامامة الاسماعيلية)، وهو منشور ضمن هذا العدد من مجلة الموسم (محمد سعيد الطريحي).

خمسة وعشرين يوماً واستوعب معظم هيئة قضاة بوبماي وقدم كل من الفريقين أدلة متقنة وموثقة وهكذا اتسع وعمق تحقيقات المحكمة في التاريخ والشريعة والناموس وبين العدد الهائل من الشهود وقف آغا خان نفسه أمام منصة المحكمة وقدم أدلة صحةنسبه. وفي الثاني عشر من تشرين الثاني ١٢٨٣هـ -١٨٦٦م أصدر رئيس المحكمة الحكم بأن:

آغاخان الرئيس الروحي للاسماعيليين ووريث لأئمة ألموت (بتلخيص عن الدعوة الإسماعيلية الجديدة ٢٩) وقد بلغت الدعوة الإسماعيلية النزارية أوجها في عهد السلطان محمد شاه علي المعروف بآغاخان الثالث ١٣٤٧هـ -١٩٥٧م الذي عهد بالأمر بعده إلى حفيده كريم خان، آغا خان الحالي. وللاسماعيلية النزارية داعية في كل مجتمع يعيشون فيه يطلقون عليه لقب المكي وهو يقوم بما يقوم به العامل عند طائفة الاسماعيلية البهرة ولا وجودللفدائيين الآن ولا للنظام السري الذي كان معروفاً من قبل.